ليلة الزجاج المكسور: وقع الفرز

أسعد أبو خليل *

لم تكن تلك الليلة، في أوّل يوم من «أسبوع الغضب» المُعلن، عندما تكسّر زجاج بعض المصارف في بيروت، عادية. وسائل إعلام السلطة تعاملت مع الحدث كأنه تكرار لليلة «البلّور المكسور» في ألمانيا، عام 1938. محطّات «الثورة» الثلاث، كانت الأكثر انتحاباً على زجاج المصارف من غيرها في الإعلام، ربّما لأنها اكتشفت أنه يمكن للاحتجاج أن يتطوّر بصورة تضرّ بمصالح الأثرياء، ومنهم مالكو المحطات. تخيّلوا أنّ مراسلة «الجديد» ليال بو موسى، تحدّثت قبل أيّام عن الأذى الذي أصاب الزجاج، لعلّه نزف دماً! أما يزبك وهبة، فقد سجّل في سيرته الذاتية تفجّعاً على زجاج المصارف في اليوم الأوّل من الاحتجاج في شهر تشرين الأول/ أكتوبر. لكن بعد غياب الفقراء عن الاحتجاج (بعد أوّل يومين)، سهل على الأثرياء والفاسدين، والإعلام المرتبط برياض سلامة، أن يعتقدوا «الثورة». لا، لم يروّج لفكرة أن هناك ثورة جارية في لبنان، أكثر من المحطات الثلاث (بالإضافة إلى الحناجر التي هتفت بـ«ثاو، ثاو، ثورة، هاي ثورة مش حرام»). إعلام المحطات الثلاث، كما إعلام النظام السعودي والقطري، يريد ثورة هادئة ومستكينة، ولا تشكّل خطراً على مصالح دول الخليج. يريد تخفيض سقف الثورة، كي لا تخرج عن النطاق الذي يريده له. وهذا ينطبق أيضاً على الرؤية الأميركية. أميركا لا تمانع العنف، إذا كان موجّهاً ضدّ أعدائها: حرق القنصلية الإيرانية في النجف، لاقى استحساناً وتأييداً في كلّ وسائل إعلام الغرب، فيما تعامل الإعلام نفسه باستفظاع شديد مع محاولة اقتحام السفارة الأميركية في بغداد، إثر الاعتداء الأميركي قرب مطار بغداد. هم يريدون العنف في لبنان لو أنه تركّز ضد المصالح الإيرانية، أو ضد حزب الله، وهذا هو حلمهم.

قد يكون مستغرباً أن يكون لليلة واحدة من تكسير بعض الزجاج، هذا الأثر البالغ على حياة هذه الانتفاضة الجارية. لكن التكسير أجبر الانتفاضة، أو العناصر المُشاركة فيها، على مراجعة مواقفها ما فضحَ الكثير من الانقسامات التي كانت مدفونة. هناك قوى في الحراك لم تكن تريد، منذ البداية، الإفصاح عن هويّتها أو عن برامجها ومطالبها. قد تكون هي القوى ذاتها التي قادت تحرّك عام 2015، وأودت به إلى الفشل الذريع والسخرية. كان دافع التحرّك، يومها، الاعتراض على تراكم النفايات، لكن قيادات تلك الحركة حرصت على إبقاء الأمور في سياق المقبول من السلطة، وكان بعض رموز هذا الحراك يظهرون على الشاشات، ويرسلون التحيّات إلى هذا المسؤول الأمني أو ذاك، على طريقة الساسة. لكنّ هؤلاء اختفوا عن الواجهة، هذه المرّة، وقد يكون ذلك بسبب سجلّ فشلهم السابق، أو بسبب نفور عناصر أخرى مشاركة في الانتفاضة من بعض الأسماء والمجموعات، ما أضفى طابعاً غامضاً على خلفية وتنظيم الانتفاضة. وزاد من الغموض أن عناصر ذات صلة بوسائل الإعلام التلفزيونية المؤثّرة، رفضت بشدّة تشكيل تنظيم تمثيليّ للحراك، كما أنها رفضت وضع رؤية مشتركة بين المجموعات المُشاركة. والمحطات أضفت طابعاً ساخراً على ضرورات التنظيم والتنسيق، عندما كان المراسلون والمذيعون والمراسلات يصرّون على أنّ «الجميع يعرف المطالب»، لكن لا أحد يعرف حقيقة المطالب، ولا أحد يعرف من يوافق ومن يختلف، ومَن يجتمع مع مَن (اختارت قناة «العربية»، مثلاً، إلبسا ممثلة لـ«الثورة» فيما يتوجّه مارسيل غانم لسامي الجميّل بالقول: «أنتم، كتّوار»).

والعنف، على بدائيّته وصغر حجمه، يكسر الجمود السياسي ويفرز بين الحركات السياسية. قد تكون أفكار جورج سوريل في كتابه «تأمّلات عن العنف» قد تعرّضت لتشويه، خصوصاً في ما وصفته أن العنف هو الذي يقضي على البربرية (مع أن الشواهد التاريخية تدعم حجّته)، لكن سوريل قدّم بديلاً عن الصراع البرلماني الذي يجمع، في الدفاع عن الأمّة ونظامها الرأسمالي، بين الأحزاب الاشتراكية والمحافظة. سوريل حضّ الطبقة العاملة على انتهاج العنف لكسر رتابة الصراع البرلماني (ليست هذه مناسبة للحديث عن سوء استعمال أفكار سوريل من قبل اليمين الفاشي). ومن نظرية سوريل عن الأسطورة، فإنّ عنف الطبقة العاملة «الجمالي»، يخدم ليميّز بين «تمرّد البروليتاريا» وبين الاستخدام البربري للقوة»: أي بين تكسير زجاج المصارف، وبين الرصاص المطّاطي في عيون المحتجّين وفي أجسادهم. وأضفى سوريل طابع البطولة على العنف الثوري، لأنه «يحمل التعبير البسيط والنقي عن مشاعر الصراع الطبقي». فهمت الطبقة الحاكمة الأمثولة سريعاً، مع تكسير زجاج أوّل مصرف: تعالت الصيحات محذّرة من الصراع الطبقي، الذي يخيف زعماء الطوائف أكثر من أي شيء آخر (ومروان خير الدين يحذّر من الشيوعية). ينسى البعض كيف أنّ زعماء الطوائف في بيروت الغربية تقاعدوا عن الخدمة، عند اندلاع الحرب في السبعينيّات، لأن الوعي الطبقي غلب الوعي الطائفي (باستثناء الحالة الدرزية، وإن تكيّف كمال جنبلاط معها عبر الترويج لاشتراكية، وإن من نوع آخر). كيف يمكن أن يثير تكسير زجاج المصارف كلّ هذه الاعتراضات والإدانات: قد تكون الإدانات (من نبيه برّي إلى وليد جنبلاط إلى سعد الحريري، مروراً بوسائل الإعلام مجتمعة) المرّة الوحيدة منذ اندلاع الانتفاضة، التي تلاقت فيها كل قوى السلطة والإعلام (كيف يمكن التعامل مع المحطات التلفزيونية، على أنها من خارج السلطة وملّاكها ينتمون إلى المراتب العليا من الطبقة الرأسمالية؟). الخوف من العنف هو دليل على فعاليته، وليس على عبثيّته. إجماع قوى السلطة على رفض وإدانة العنف (ضد الزجاج)، هو تعبير عن خوفها من اكتشاف المحتجّين لفعالية العنف. هل كان يمكن، مثلاً، إجهاض المشروع الانعزالي في عام 1975، بالهتافات والأغاني؟

إنّ هذا الإسراع في تشكيل الحكومة لم يكن إلا بسبب العنف (ضد الزجاج)، لأنّ الطبقة الحاكمة خافت على مصالحها منه. والعنف له أكثر من هدف: هو يُسرّع التاريخ ويعجّل في تجاوز المراحل، كما أنه يفرض فرزاً بين القوى السياسية. إنّ فرز قوى اليسار الثوري ويسار إصلاحي (تمثّل بالحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي) كان حول موضوع العنف. كان اليسار الإصلاحي يصرّ على أنّ الصراع اليساري يجب أن ينحصر في النطاق البرلماني الانتخابي، فيما كانت قوى اليسار الثوري تحذّر من أنّ السلطة لن تتخلّى طواعيةً عن الحكم، وأنّ الدفاع عن المقاومة الفلسطينية بات واجباً من باب الدفاع عن النفس، لأنّ قوى الانعزال لا تضمر شرّاً للمقاومة فقط، بل لحلفائها أيضاً. طبعاً، كان اليسار الإصلاحي هو السائد، وكان مدعوماً من كمال جنبلاط وياسر عرفات، فيما لم تكن قوى اليسار الثوري بحجم يمكّنها من فرض رؤيتها وممارستها، أو من صدّ قوّة حركة «فتح» الحاسمة. وفي المراجعة التاريخية لتلك المرحلة، يتّضح أنّ اليسار الثوري كان على حق، ولو أنّ اليسار الإصلاحي قبل بالتسلّح والإعداد المبكّر، ردّاً على الأعداد والتجهيز الانعزالي الذي انفضح أمره في أواخر الستينيات، لكان مسار الحرب مختلفاً ولكان أجلها أقصر بكثير.

ليلة تكسير الزجاج فصلت بين قوى اليسار واليمين في الحراك، وفصلت بين قوى اليسار نفسها. حاول أعداء القوى الجذرية في الحراك، نسب أعمال التكسير إلى مناصري حزب الله، لعلمهم أن ذلك يستفزّ الغرائز الطائفية ويسرع في إفقار الحراك العنيف (بعض الشيء) من مشروعيّته السياسية والشعبية. تخيّلت قوى السلطة، وتخيّلت بعض قوى الحراك في تلك الليلة، وصمت الكثير من الصحافات على مواقع التواصل من الذين واللواتي كانوا يهتفون باسم «الثورة»، على مدار الساعة، أصابعهم البكم في تلك الليلة.

وتأزرت قوى السلطة (المتحالفة مع طغاة الخليج وإعلامهم الطغاني) في ردّ فعلها ضد تكسير الزجاج. موقع النظام القطري، «المدن»، نشر مقالة وصف فيها الكاتب، الشباب اليساري الذي شارك في التكسير بأنهم مرتزقة. والوصف في موقع يدين بموالفته بما يأتي من أوامر عليا، مثل كلّ المواقع المموّلة من طغاة الخليج أو من الحكومات الأوروبية واليسارية لم تكن ارتزاقاً في لبنان، إلا في حالة واحدة: عندما نشأت حركة طفيلية يسارية (اسماً) على ضفاف اليمين الرجعي الحريري، بعد اغتيال رفيق الحريري. اليسارية لا تأتي على معتنقيها بالمال والمرتّبات والمنافع، كما اليمينية والرجعية الغربيّين. للجيوش وأجهزة الشرطة والمخابرات العربية، هي بهدف محاربة أعداء أميركا (تحت شعار «محاربة الإرهاب»)، ومحاربة الأعداء الطبقيين للسلطات التي تحميها أميركا. وبالرغم من الترابط المفضوح بين الطبقات الحاكمة في بلادنا وبين دول الغرب، فإنّ بعض المحتجّين (ليس حصراً في العراق)، يصرّ على تحييد أميركا بحجّة أن السياسة الخارجية ليست هي الهم، كأنّ رياض سلامة ظاهرة محلية أكثر ممّا هو مدرسة وديع حداد، وقال لي بحسرة شديدة: لم يعد لي مصدر دخل غير هذه السيارة). علي شعيب أراد استهداف المصارف والسيطرة الإمبريالية، في ضربة واحدة في لبنان. رمزية علي شعيب تتّسع، وهي تخيف كتّاب السلطة والطغاة. والحكومة الأميركية «فتح» الحاسمة. وفي المراجعة التاريخية لتلك المرحلة، يتّضح أنّ اليسار الثوري كان على حق، ولو أنّ اليسار الإصلاحي قبل بالتسلّح والإعداد المبكّر، ردّاً على الأعداد والتجهيز الانعزالي الذي انفضح أمره في أواخر الستينيات، لكان مسار الحرب مختلفاً ولكان أجلها أقصر بكثير.

ليلة تكسير الزجاج فصلت بين قوى اليسار واليمين في الحراك، وفصلت بين قوى اليسار نفسها. حاول أعداء القوى الجذرية في الحراك، نسب أعمال التكسير إلى مناصري حزب الله، لعلمهم أن ذلك يستفزّ الغرائز الطائفية ويسرع في إفقار الحراك العنيف (بعض الشيء) من مشروعيّته السياسية والشعبية. تخيّلت قوى السلطة، وتخيّلت بعض قوى الحراك في تلك الليلة، وصمت الكثير من الصحافات على مواقع التواصل من الذين واللواتي كانوا يهتفون باسم «الثورة»، على مدار الساعة. أصابعهم البكم في تلك الليلة.

وتأزرت قوى السلطة (المتحالفة مع طغاة الخليج وإعلامهم الطغاني) في ردّ فعلها ضد تكسير الزجاج. موقع النظام القطري، «المدن»، نشر مقالة وصف فيها الكاتب، الشباب اليساري الذي شارك في التكسير بأنهم مرتزقة. والوصف في موقع يدين بموالفته بما يأتي من أوامر عليا، مثل كلّ المواقع المموّلة من طغاة الخليج أو من الحكومات الأوروبية واليسارية لم تكن ارتزاقاً في لبنان، إلا في حالة واحدة: عندما نشأت حركة طفيلية يسارية (اسماً) على ضفاف اليمين الرجعي الحريري، بعد اغتيال رفيق الحريري. اليسارية لا تأتي على معتنقيها بالمال والمرتّبات والمنافع، كما اليمينية والرجعية الغربيّين. للجيوش وأجهزة الشرطة والمخابرات العربية، هي بهدف محاربة أعداء أميركا (تحت شعار «محاربة الإرهاب»)، ومحاربة الأعداء الطبقيين للسلطات التي تحميها أميركا. وبالرغم من الترابط المفضوح بين الطبقات الحاكمة في بلادنا وبين دول الغرب، فإنّ بعض المحتجّين (ليس حصراً في العراق)، يصرّ على تحييد أميركا بحجّة أن السياسة الخارجية ليست هي الهم، كأنّ رياض سلامة ظاهرة محلية أكثر ممّا هو

(مروان طحطح)

الأخبار
al-akhbar
■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول: ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب
■ مدير التحرير: وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير: حسن عليق، إيلي حنا، أمل الأتحري
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب: بيروت ـ فرحات ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق الثامن
■ تلفاكس: 01759500، 01759597
■ ص.ب 113/5963
■ الإعلانات: الوكيل الحصري ads@al-akhbar.com 01/759500
■ التوزيع: شركة الأوائل ـ 15 01/ 666314، 03 / 828381
■ الموقع الالكتروني www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper

> قد يكون مستغرباً أن يكون لليلة واحدة من تكسير بعض الزجاج، هذا الأثر البالغ على حياة هذه الانتفاضة الجارية
>
> ليس هناك من معالم ليسار ثوري منظّم في لبنان بعد، لكن الشبيبة اليسارية تتعلّم بسرعة وتأخذ الدروس

ظاهرة للسيطرة الاستعمارية الغربية على بلادنا. السيطرة الغربية على أدوات النهب والقمع، تعني أنّ التغيير من 8 إلى 14 آذار، أو العكس، لا تبدّل تبديلاً. جوزيف عون، الذي أصبح قدوة عند صهاينة واشنطن، كان تعييناً من 8 آذار، كما كان ميشال سليمان. صنيعة المخابرات السورية في لبنان. وكما أنّ أميركا، من سفارتها في بيروت، رعت وأدارت عملية قمع اقتحام «بنك أوف أميركا»، في عام 1973، فإنّ الإدارة الأميركيّة سترعى عملية قمع اليسار الثوري في لبنان (وهناك في هذا اليسار من تحاشى التظاهر أمام السفارة الأميركية، ردّاً على تدخل أميركي في شؤون لبنان، مُفضّلاً التظاهر أمام مكتب جبران باسيل).

والسيطرة الأميركية على أدوات القمع وأدوات النهب الرأسمالي في بلد مثل لبنان (حيث يُقال إن الحكم بيد حزب الله)، تعطي فكرة عن نطاق السيطرة الأميركية في بلادنا. عندما تحارب أميركا نفوذ حزب الله في لبنان: هي لا تكون تحمي إسرائيل فقط، بل هي تحارب من يمنع عليها احتكار السلطة والأسحقاق على السلطة السياسية برمّتها في لبنان. ليس هناك من معالم ليسار ثوري منظّم في لبنان بعد. لكن الشبيبة اليسارية تتعلّم بسرعة وتأخذ الدروس. هي تعلّمت بسرعة بعد ليلة الزجاج المكسور، أنّ هناك في الحراك من يناصبها العداء ولا يتشارك معها في الأهداف والوسائل. ولهذا، سارع يساريّون ناشطون في الحراك، متأخرين جداً، إلى التنبيه من نفوذ وأدوار منظمات الـ«إن. جي.أو»، التي تتحرّك تحت سقوف الممّولين المحكومين بالدفاع عن النظام اللبناني الفاسد وزعمائه الفاسدين، بسبب ولائهم للغرب ولعدم تشكيلهم أي خطورة أو أوجاع للعدو الإسرائيلي. وبرز بين اليسار من استنكر العنف، وانقسمت صفوف «الثوّار» بين معترض على تكسير الزجاج وبين مؤيّد، كما انضمّ إعلام السلطة (المتسربل بثوب «الثورة») إلى الهمروجة ليميّز بين «الثوّار» وبين «الزعران». وحتّى قوى الأمن، في بياناتها، أصبحت تميّز بين «الثوّار» الحقيقيين وبين مثيري الشغب، كأنّ للسلطة حق التصنيف.

وكثر الحديث على مواقع التواصل الاجتماعي بين المحتجّين والناشطين، عن منظمّات الـ«إن.جي.أوز». فكان هناك مَن حذّر منها، وهناك مَن أيّدها، وهناك من طالب بالتمييز بينها وعدم الإجمال في الحديث عنها (كيف يكون التمييز بينها؟ على أساس اسم الدولة المُموّلة أم على غرض المنظّمة بعينها؟ وهذا التصنيف هل يكون بناء على مسافة الشخص منها، أم على المسافة بينها وبين تلك المطالب التي لا تروق للدول الغربية - إذ ليس بين منظّمات الـ«إن.جي.أوز» مَن يحمل، مثلاً، أجندة أفريقية أو آسيوية أو حتى عربية شعبية).

لكن القوى التي تريد الدفع باتجاه أكثر ثورية لا تزال، كما غيرها، تفتقر إلى برنامج عمل يحدّد بوضوح معالم المرحلة المقبلة، وأهداف الاحتجاجات والانتفاضة. ليس معروفاً بعد، مثلاً، مَن يؤيّد تأميم المصارف ومَن يعارض. وتكسير الزجاج، هو مرحلة أولية ومهذّبة من استعمال العنف الوندلي. وقد لاقى استفظاعاً من ثقافة تدجّنت على أنغام ثقافة الغرب، المفروضة علينا من قبل أوصياء أجندتها في الـ«إن.جي.أوز»، وفي المنظمات الدولية العاملة في بلادنا بالنسق نفسه لعمل السلطات الاستعمارية. هاكُم مندوب الأمم المتحدة في لبنان يدلي بدلوه في شأن الحكومة وتشكيلها، ويجتمع نائبه مع نقيب المحامين. ويحقّ للعربي أن يتساءل لماذا لا يوجد مُدبّر للأمم المتحدة في دولة الاحتلال الإسرائيلي ليرعى شؤونها كما يرعى هؤلاء شؤوننا، أم أنّ تلك الدولة بلغت من الرقي والنضوج ما لم نبلغه نحن المؤتَنين؟

أدركنا في «أسبوع الغضب» أنّ مهرجان قرع الطناجر كان أقلّ براءة ممّا بدا، وأنّ ترويج كتابات جين شارب بالعربية لقرع الطناجر، تعود إلى صلة شارب (التي باتت تتكشّف أكثر) بإمبراطورية الحرب الأميركية. والذين أعلنوا من على الشاشات ضرورة إنجاح «أسبوع الغضب»، هم أنفسهم كانوا أول من هرب وتنصّل، بعد كسر أوّل زجاج. لم يكن «أسبوع الغضب» عند هؤلاء، أكثر من أسبوع للامتعاض والاستياء. يريدون، أي الذين يصدحون بشعارات الثورة من دون ترجمتها عملياً، أن يكون الغضب مضبوطاً ومحسوباً من أجل تفاوض أفضل مع السلطة. والحديث، حتى من قبل قوى يسارية في الانتفاضة، عن إجراء مفاوضات مع السلطة للتنازل عن السلطة، يوحي بأن المسألة هي إقناع السلطة بضرورة رحيلها. لم تسقط جمهورية الإمبراطور. الرئيس في لبنان هكذا من تلقاء نفسها، بل هي سقطت بالعنف مع أنّ قوى خارجية وإقليمية كانت تدعمها. وكان لعهد أمين الجميّل من الدعم الخارجي (الخليجي والغربي) ما لم يكن لأي رئيس جمهورية من قبل، إذ تمتّع حكمه بحماية الـ«مارينز» وجيش الاحتلال الإسرائيلي. لكنّه سقط، وبسرعة رهيبة في شباط/ فبراير 1984. طبعاً، هو سقط بالعنف وليس بقرع الطناجر.

والحريرية، وميليشيا أشرف ريفي، أرادتا أن توجّها رسالة لمَن يستعمل العنف، ولو كان مُخفّفاً ضد السلطة. هي لم تلجأ فقط إلى رفع لواء الحرب المذهبية: سعد الحريري، الذي يبدو لطيفاً على الشاشة بسبب محدودية معرفته وذكائه، لا يتورّع (كما كان أبوه من قبله) عن الشحن الطائفي المذهبي البغيض لإبعاد شبح الحرب الطبقية. وهذا ما فعله هذا الأسبوع: جعل من الاحتجاج مناسبة للاعتراض باسم «أهل بيروت»، كأنّ المحتجّين في بيروت ينتمون إلى كوكب آخر، أو كأنهم يحملون من الجنسيات ما يحمل هو، أو كأنهم عاشوا بعيداً عن بيروت كما عاش هو. وشعار «أهل بيروت» (وهو من ابتداعات المذهبية الحريرية)، يفترض أنّ «الطارئين» على بيروت هم قاطنون في الجنوب، فيما هؤلاء وُلدوا في العاصمة التي نزح إليها أجدادهم. وزاد أشرف ريفي على رسالة الحريري، عندما وصل اتّباعُه إلى المدينة للتكسير احتجاجاً على تشكيل الحكومة. لكن ما علاقة الحركة الاحتجاجية بشعارات عن عودة سعد (أو بهاء في حالة ريفي) إلى رئاسة الحكومة؟

التنظيم في الانتفاضات مثل الملح في الطعام: القليل منه لذيذ والكثير منه مضرّ. لكن التنظيم في التحرّكات الشارعية لم يتطوّر بما فيه الكفاية. إنّ مرحلة العمل الثوري، بما فيه مرحلة الاستعانة بالعنف الثوري، تحتاج إلى سرية غير موجودة في صفوف القوى اليسارية. وحركتها في الشارع تبقى غير مفهومة ما لم ترتبط بمشروع سياسي ـ اقتصادي، محدّد بنقاط يسهل شرحها وفهمها من الناس. لن تسقط السلطة الحاكمة بتظاهرات أو بقرع الطناجر (على العكس، فإنّ قرع الطناجر من شأنه أن يطمئن السلطة، بأن أقصى ما يمكن أن يصلها من الاحتجاج هو تلوّث صوتي). ينسى الجيل الجديد أن حزب «الكتائب» كان يرفض حتى عام 1982، أن يعترف بما هو بديهي: إنّ لبنان هو بلد عربي. كان ببار الجميّل الجد يردّ على السؤال عن هوية لبنان بجواب متشعّب، خلاصته أنّ خبراء في الجغرافيا والتاريخ (وفن الطبخ؟) هم المؤهّلون للجواب عن السؤال الصعب. لكنّ حزب «الكتائب» بات يعترف رسمياً بهوية لبنان، وهو لم يفعل ذلك إلا لأنه رضخ للقوة المسلّحة التي أجبرته على الإقرار. كان جورج حبش، عندما يخطب في أهل المخيّمات، يقول لهم: ليس لديكم ما تخسرونه إلا الخيمة. أما السلطة الحاكمة في لبنان، فلديها الكثير لتخسره، وستدافع عنه بالقوة المسلّحة. وعلى أعداء السلطة التحضّر والتبصّر وتبييض الطناجر.

* كاتب عربي (حسابه على «تويتر» @asadabukhalil)

الانتفاضة بروفة أولى نحو إنضاج مشروع التغيير

سعد الله مزرعاني *

في تحرّك كبير وواسع، مستمر منذ حوالى مئة يوم (ابتداءً من 17 تشرين الأول / أكتوبر الماضي)، دفعت الأزمة التي عصفت بلبنان وبشعبه، مئات آلاف المواطنين إلى المشاركة في احتجاجات غير مسبوقة. الأزمة ذات طابع جذري، يقع مصدرها في صلب النظام السياسي ـ الاقتصادي اللبناني نفسه الذي تبلور، تباعاً ودائماً، تحت عنوان «الصيغة الفريدة»، إلى منظومة محاصصة طائفية مذهبية زبائنية تهيمن على كامل الحياة السياسية والاجتماعية في البلاد. لم تتوانَ القوى التي تشكّلت منها تلك المنظومة، وبهدف ترسيخها وتعميمها، عن استخدام أيّ من الأدوات السياسية أو المادية أو الإعلامية أو الثقافية أو الفنية والرياضية... فضلاً عن العصبيات وبقايا الموروثات القديمة، إلى انتهاك الدستور والقانون. لقيَت «الصيغة الفريدة» تلك، رعاية ودعماً خارجيين دائمين. ورغم ما رافقها من توترات وحروب أهلية مدمّرة، حاول أقطاب الهيمنة الاستعمارية تصويرها كنموذج قابل أن يُحتذى أو يُعمَّم: تسهيلاً لوضع يدهم على مصائر المنطقة وشعوبها وثرواتها وأسواقها.

في مجرى ذلك، نشأت نظرية سياسية، وإعلامية متكاملة، لتسويق فكرة أن فرادة وتميّز صيغة نظام الحكم، إنما هما عامل تكويني في لبنان وشعبه وفي استمرارهما، وأن الكيان اللبناني وتلك الصيغة وجهان لحقيقة واحدة، يبقى أو يزول أحدهما، ببقاء أو زوال الآخر. طبعاً، لم يصمد ذلك التزوير المتمادي أمام الأزمات المتعدّدة التي عصفت بلبنان والمنطقة في الحقول كافة. البلد لم يتمكن من أن ينعم، يوماً، بالوحدة والاستقرار والاستقلال والتنمية. احتكار السلطة وتسخيرها ونهب موارد الدولة، كلّها عوامل فاقمت من التفاوت الاجتماعي، وحصرت الثروة بشكل متصاعد في جيوب الطبقة المسيطرة التابعة، سياسياً واقتصادياً، طبقة الـ1% من اللبنانيين. النهب الشامل للعام والخاص، وانتهاك الدستور والقانون والفساد والجشع والاستهتار، كلّها عوامل دفعت الأزمة إلى حدودها القصوى: الانهيار والفشل والخراب...

خلال عقود طويلة، نجحت المنظومة المسيطرة، بالإضافة إلى تأثير الحرب الأهلية وعوامل أُخرى خارجية، في إضعاف حركة الاعتراض وفي عرقلة تطورها. لكنّ تعاظم الأزمة، في السنوات الماضية، ودخول ضررها إلى كلّ بيت، حوّلاها إلى عامل لا يمكن السيطرة عليه. اختبر اللبنانيون، في تلك السنوات خصوصاً، أشكالاً متواصلة من الأزمات السياسية والمعيشية والبيئية والإدارية والخدماتية. لكنّهم كانوا غير مسلّحين بالأدوات الضرورية للتعامل مع هذه الأزمات: بسبب ضعف وتشتّت قوى التغيير (غالباً)، وافتقارها إلى المبادرة والبرامج المباشرة، وبسبب ما تراكم في سجلّها من إخفاقات، الأمر الذي أفقدها القدرة على أن تكون مرجعية للتغيير وأداة لإحداثه. هكذا، في مقابل أزمة قوى السلطة، كانت تحضر أزمة قوى التغيير. ثمّ إنه رغم تقدّم الأزمة الاقتصادية ـ الاجتماعية إلى واجهة المشهد، خلال السنوات القليلة الماضية، إلا أنّ قوى التغيير لم تنجح في الارتقاء إلى مستوى ما تطرحه الأحداث من مهمات ومبادرات وبرامج وممارسات. ذلك أن النجاح كان، ولا يزال، وفق المنطق والمستجدات والتحوّلات وحتمية التمرحل، مرهوناً بإعادة تأسيس قوى التغيير نفسها وفق متطلبات ومهمات الزمن الراهن وأولوياته، وعلى أساس خبرة الأحزاب نفسها، وخبرة التجارب الجبهوية، بنجاحاتها وإخفاقاتها.

كان على المبادرين إلى التحرّك والدعوة إليه، من بين القوى المتضرّرة، إذن، أن ينطلقوا بشكل «عفوي»، أي بما ملكت أيديهم. وهو ليس بالكثير، لناحية البرامج والتوجهات والأسس الفكرية والشمولية والحد الضروري من التنظيم. حصل ذلك في محطات عدّة، في عامَي 2011 و2016، وفي السنوات الأخيرة، وخصوصاً منذ 17 تشرين الأول / أكتوبر الماضي. أما بعض قوى التغيير، فحيث أقدمت، كان تحرّكها منفرداً وحذراً وفئوياً غالباً. فلم يكن مناسباً أبداً الانعزال عن الناس بالشعارات والرايات، التي أضفت على شأنٍ وطني عام طابعاً حزبياً وخاصاً (تُذكر هنا التحركات بشأن الموازنة).

اندفعت إذاً، تحت تأثير التدهور الاقتصادي الخطير، أعداد كبيرة من الناس في كل المناطق. اكتفت هذه الفئة بطرح معاناتها، من دون أن تطرح حلولاً أو برامج أو أولويات. تميّز خطابها بعفوية تنمّ عن عدم النضج، وعن حذر حيال كل أشكال التنظيم ووحدة الموقف والقيادة والتحرّك. وقد شمل الحذر، بشكل غير عفوي دائماً، قوى التغيير نفسها . شعار «كلّن يعني كلّن» شكّل مظلّة للإمعان في بلبلة المشهد، وتعبيراً عن عدمية أسقطت التفاوت في المواقف العامة من الصراعات، وعدم التساوي في المسؤوليات والارتكابات. وهو شكّل، أيضاً، أساساً لتسلّل قوى مغرضة إلى الاحتجاجات من أجل توظيفها، بشكل فئوي، في الصراعات بين أطراف السلطة، أو مشبوه في خدمة أهداف خارجية. أما قوى التغيير، فقد أثرت المساهمة عبر الالتحاق، بعدما فقدت ميزة المبادرة منذ الانطلاق. وهي، فوق ذلك، عملت متفرّقة ومتنافسة. بعضها رفض، حتى مجرّد اللقاء والحوار في ظرف استثنائي يفرض تجاوز كل ما سبق من خلافات وتباينات. وهكذا، فشلت كلّ المحاولات التي انطلقت في خدمة هذا الغرض.

في هذا الخضم، استمر تيار المقاومة الأساسي يُقلّل من شأن القضية الاقتصادية ـ الاجتماعية، وهو ظلّ حتى اللحظات الأخيرة (ولا يزال ربما)، يبحث عن أوهام حلول في جعبة أبطال الأزمة نفسها! بل أكثر من ذلك، فإن قيادة المقاومة بالغت، لدرجة إضفاء الشبهة على كامل الانتفاضة الشعبية وأهداف تحرّكها، وهي بالغت إذ قدمت نفسها أحياناً، بشكل مباشر، حامية لقوى النهب والفساد: حليفة كانت أم معادية للمقاومة.

طبيعي أنه، برغم تفجّر الأزمة وشمول أضرارها للأكثرية الساحقة من المواطنين، فإنّ المجابهة كانت أقل من المطلوب. لكنّها رغم ذلك، لم تكن بدون نتائج إيجابية. لقد طرح موضوع التغيير على أوسع نطاق. استقالت الحكومة وشُكّلت حكومة جديدة مختلفة إلى حدٍّ ما، رغم إصرار قوى المحاصصة (معظمها جديد) على تكريس مبدأ المحاصصة، ولو عبر انكفاء الأصيل. الشارع مارس دوراً غير بسيط في تقديم مبدأ المحاسبة والمساءلة على ما عداه. جرى الربط، بشكل مباشر، بين النهب والفساد وغياب المحاسبة، والطائفية. تمّ ابتكار كثير من أشكال الاحتجاج التي افتقرت، مع ذلك، إلى التدقيق والتحسين والتنظيم والتصاعد. تمّ فضح الكثير من أشكال النهب. تم أيضاً كسر محرّمات وقدسيات زائفة.

شكلت الانتفاضة، رغم كل السلبيات، حدثاً تاريخياً. لكن انتفاضات أهم وأكبر بكثير، سقطت في أيدي قوى منظمة معادية للهدف الشعبي، بسبب «العفوية» وعدم التنظيم، كما حصل في مصر وتونس. من استخلاص دروس الانتفاضة، يبدأ الفعل الثوري التغييري الحقيقي: الأزمة والمعركة مفتوحتان، وتعميق الحوار بشأنهما أيضاً. هي معركة تحرّرية دائماً بشقّيها الوطني والاجتماعي. لا مبرّر لأي تردّد أو خطأ بعد الآن!

* كاتب وسياسي لبناني